

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى
وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴾ [النساء: 163]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ يُثَبِّتُ نَبُوَّتَهُ، وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ عِنَادًا وَلِجَاجًا، وَذَكَرَ جَمْلَةً مِنْ جَرَائِمِهِمْ وَقِبَائِحِهِمْ وَمَصِيرِهِمْ؛ وَاسْتَنْتَى الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْمَنْزِلِ عَلَيْهِ، وَعَلَى مِنْ قَبْلِهِ، وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، جَاءَ الرَّدُّ عَلَى طَلِبِهِمْ ذَاكَ، فَأَخْبَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ أَرْسَلَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ، كَمَا أَرْسَلَ مِنْ تَقَدُّمِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، سِوَاهُ مِنْهُمْ مِنْ ذِكْرِ فِي الْقُرْآنِ، أَمْ لَمْ يُذَكَّرْ، وَأُظْهِرَ عَلَى يَدَيْهِ الْمَعْجَزَاتِ، كَمَا أَظْهَرَهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ، فَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي ثُبُوتِ النَّبُوَّةِ بِالْوَحْيِ إِلَيْهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِ الْوَحْيِ، وَتَصَدِيقِ نَبُوَّتِهِمْ بِالْمَعْجَزَاتِ، وَكَانَ هَذَا كَافِيًا فِي إِثْبَاتِ نَبُوَّتِهِمْ، دُونَ حَاجَةٍ إِلَى إِنْزَالِ كِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ (1).

الرد على
طالبى كتاب
من السماء،
بأن الرسل
مؤيدون بالوحي
والاصطفاء

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿أَوْحَيْنَا﴾: أَصْلُ الْوَحْيِ: إِعْلَامٌ فِي خَفَاءٍ وَسُرْعَةٍ، يُقَالُ: وَحَى إِلَيْهِ بِالْكَلَامِ يَحْيِ وَحْيًا، وَأَوْحَى يُوحِي إِحْيَاءً، فَالْوَحْيُ: الْإِشَارَةُ، وَالْوَحْيُ: الْكِتَابُ وَالرَّسَالَةُ، وَكُلُّ مَا أَلْفَيْتَهُ إِلَى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ، فَهُوَ وَحْيٌ كَيْفَ كَانَ، سِوَاهُ كَانَ بِالْكَلَامِ عَلَى سَبِيلِ الرَّمْزِ وَالتَّعْرُضِ، أَمْ بِصَوْتٍ مُجَرَّدٍ عَنِ التَّرْكِيبِ أَمْ بِإِشَارَةِ بَعْضِ الْجَوَارِحِ وَبِالْكِتَابَةِ.

وَالْوَحْيُ: هُوَ مَا يُلْقِيهِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَنْبِيَائِهِ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ، يُشِيرُ إِلَى

(1) الرازى، مفاتيح الغيب: 11/266.

بعضها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾ [الشورى: 51] (1).

(2) ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾: جمع سبط، وهو ولد الولد، وأصله: من سبط، أي: امتد، وتتابع، كأنه امتداد للفروع والنسب، وهم أسباط إسحاق، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب، فهم في ولد يعقوب، كالقبائل في ولد إسماعيل، وهم اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ولداً ليعقوب ﷺ وسُموا بالأسباط؛ لأنه كان من كل واحد منهم سبط، أي: أمة عظيمة، واشتقاقهم من السبط، وهو: التتابع، سُموا بذلك؛ لأنهم أمة متتابعون، وقيل: هو مَقْلُوبٌ من البسط، وقيل: من السبط: بالتحريك جمع: سبطة، وهي الشجرة التي أصلها واحد، وأغصانها كثيرة، فسُموا بذلك لكثرتهم (2).

(3) ﴿زُبُورًا﴾: أصل الزبر: إحصاء الشيء وتوثيقه، بقرأةٍ وكتابةٍ ونحو ذلك؛ لأن الكتابة تحتاج إحصاءاً، وتوثق بها الأشياء، والزبر: إحصاء العمل في البئر، تقول: بئر مزبورة؛ إذا كانت مطوية بالحجارة، والزبر: إحصاء الكتاب، يقال: زبرت الكتاب: كتبت كتابه غليظة، وخُصَّ الزبور بالكتاب المنزل على داود ﷺ وجمعه: زُبر، قيل: الزبور: اسم لكل كتاب ليس فيه أحكام، ولذلك سمي ما نزل على داود زبوراً؛ إذ لم يكن فيه أحكام، بل أمثال وعظات (3).

✽ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ

كما أوحى الله
إلى الأنبياء
السابقين،
أوحى يقينا إلى
خاتم المرسلين

يُخَاطَبُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ، بِأَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ مِثْلَ مَا أَوْحَى إِلَى نوح والأنبياء من بعده، وأوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، والأنبياء من الأسباط أولاد يعقوب، وفيهم يوسف النبي، وعيسى، وأيوب، ويونس، وهارون، وسليمان،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحُفَاط: (وحي)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/15.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحُفَاط: (سبط)، والراغب، تفسير الراغب: 1/322، والسمين، الدَّرِّ للصون: 2/138.

(3) الرَّجَاح، معاني القرآن وإعرابه: 2/132، وابن فارس، مقاييس اللغة الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحُفَاط: (زبر).

وأعطى داود ﷺ كتاب الزبور، فيه التَّحْمِيد والتَّعْجِيد والثَّناء على الله ﷻ.

❖ الإيضاح اللُّغَوِيُّ والبلاغِيُّ:

ورود التعبير بالضمير (نا) خمس مرّات، وتأكيدُه بضمير عظمة الذات:

﴿إِنَّا﴾: حرف ناسخ يفيد التوكيد، و(نا): ضمير متّصل بصيغة الجمع؛ لتعظيم الوحي والمُوحى إليه، وهذا التأكيد يفيد الاهتمام بهذا الخبر، أو تنزيل المردود عليهم منزلة مَنْ يُنكر كَيْفِيَّةَ الوحي لغير موسى من الرُّسل⁽¹⁾.

دلالة الفصل وأثره في المعنى، في قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾:

فصلت هذه الجملة عمّا قبلها؛ لأنّها جملة استثنائية، جاءت للردّ على اليهود في طلبهم أن يُنزّل عليهم كتابًا من السّماء جملة واحدة⁽²⁾، وقد جاء هذا النّص مربوطًا في المعنى بطلبهم أن يُنزّل الله عليهم كتابًا من السّماء،، ففي هذه الآية بيان بأنّه تعالى أوحى إلى محمّد ﷺ، وأنّه ليس بدعا من الرُّسل، بل هو في تلقّي الوحي، لا يختلف عنهم البتّة⁽³⁾.

إيثار استعمال الفعل ﴿أَوْحَيْنَا﴾ عوضا عن الفعل (أرسلنا):

اختار التعبير بالفعل ﴿أَوْحَيْنَا﴾ دون أرسلنا؛ لأنّ الوحي يختلف عن الإرسال، فمعناه: إعلام في خفاء؛ لأنّ أصله الإشارة السّريّة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز، وقد يكون بصوت مجرّد عن التّركيب، وبإشارة بعض الجوارح وبالكتابة، وأكثر ما ورد في القرآن الكريم، بمعنى كلام الله تعالى الذي ألقاه إلى أنبيائه ورسله عن طريق جبريل، بخلاف الإرسال؛ فإنّه يكون ببعث من له اختيار

الوحي عامل
مشارك بين
النّبيين، وبين
رسول الختام
الأمين

النّبوة المحمّديّة
الخاتمة، تتويج
لرّسالات
السّابقة

الوحي كلام
الله المقدّس،
والإرسال تبليغ
للمنهج المكرّس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/31.

(2) الجمل، حاشية الجمل على الجالين: 1/447.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1963.

نحو إرسال الرُّسل، ويكون في الأشياء الممنوعة والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتَّسخير، كإرسال الرِّيح والمطر. ويُلاحظ في الوحي - أيضاً - معنى السُّرعة كما سبق، بخلاف الإرسال؛ فهو على التُّؤدة؛ ولأنَّ الوحي أعمُّ لتعدد صورته؛ كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِّئِكَ أَنْ يَكْلَمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: 51]؛ ولأنَّ الوحي - أيضاً - يلزم منه الإرسال، وعلى ذلك فالوحي أعمُّ من الإرسال.

دلالة تعدّي الفعل (أوحى) بحرف الجرّ (إلى) دون حرف (اللّام):

الوحي هداية
السّماء للأرض
ليبين ما شرّعه
من ممنوع
وفرض

يَجِدُ النَّاطِلُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ الْفِعْلَ (أَوْحَى) تَعَدَّى بِحَرْفِ الْجَرِّ (إِلَى) فِي أَكْثَرِ مَوَاضِعِهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَلْقَاهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ عَنْ طَرِيقِ جَبْرِيلَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: 3]، وَقَدْ يَرُدُّ بِمَعْنَى: الْإِلَهَامُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]، وَبِمَعْنَى: الْإِشَارَةُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11]، وَ(إِلَى) فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ بِمَعْنَى: انْتِهَاءُ الْغَايَةِ، أَيْ: انْتِهَاءُ الْوَحْيِ وَوَصُولُهُ إِلَى مَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، بِخِلَافِ تَعَدِّيهِ بِحَرْفِ اللَّامِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [النِّزْلَةُ: 5] فِي سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ؛ فَهُوَ بِمَعْنَى: الْأَمْرُ وَالْإِذْنُ.

وَعَلَّ أَبُو حَيَّانٍ سِرَّ التَّعْدِيَةِ بِ (اللّام) بِمُرَاعَاةِ الْفَاصِلَةِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ لَهُ وَجْهٌ فِي مِرَاعَاةِ الْجَانِبِ الصَّوْتِيِّ فِي السُّورَةِ؛ فَهُوَ أَشَدُّ تَأْثِيرًا فِي الْقُلُوبِ.

وَعَلَّ ابْنُ عَاشُورٍ سِرَّ اخْتِيَارِ (اللّام) فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْحَى لَهَا﴾ [النِّزْلَةُ: 5] بِتَضَمِينِهِ مَعْنَى: قَالَ. وَعَلَى ذَلِكَ كَانَ الْمُنَاسِبُ تَعَدِّي الْفِعْلِ أَوْحَى بِ (إِلَى)؛ لِأَنَّهُ الْأَوْفَقُ فِي إِبْلَاغِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهُوَ غَايَةٌ فِي ذَاتِهِ.

سرّ تقديم النَّبِيِّ الخاتم في اللقال، مع تأخّره عن الأنبياء في الإرسال:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: فيه تخصيص رسول الله ﷺ بالخطاب، وفيه تكذيب للذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء بعد موسى⁽¹⁾، وحذف المفعول به اختصاراً لوضوحه وعدم لبّسه، أي: أوحينا إليك القرآن. مع الإشارة إلى أنّ البشريّة جمعاء مطالبة بالإيمان به، وبما جاء به جملة وتفصيلاً، وفيه إشارة - أيضاً - إلى نسخ الشرائع السابقة والعمل بشريعته ﷺ.

من تقدّم عند
الله ذكره علا في
الملأ الأعلى قدره

مخاطبة النَّبِيِّ بكاف الخطاب، ليدفع عنه الغلوّ في الارتباب:

تدلُّ كاف الخطاب على علوّ قدره ﷺ وعلوّ مكانته، فإذا كانت اليهود تستعلي عن قبول دعوته ﷺ بحجّة تكليم الله لموسى؛ فقد جاءت كاف الخطاب هنا، لتدلّ على هذا المعنى وزيادة؛ لأنّ خطاب الله لنبيه ﷺ يدلُّ على قربه وعظيم منزلته عند ربّه. وفيه إشارة إلى أنّه ﷺ مبعوثٌ لأهل الكتاب لإرشادهم وتعليمهم وزجرهم عن المخالفات.

الوحي إليه على
رأس النبوات
دليل على ما
أوتيه من فضائل
وتكرّمت

بلاغة التشبيه للوحي إليه، بالوحي للتّبيين مع اختلاف أزمانهم:

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، أي: أوحينا إليك إيحاءً، مثل: إيحائنا إلى نوح، والنّبیین من بعده، وهو تشبيه مرسل مفصل: حيث إنّ تخصيص نوح بالذكر للتّشريف، وتخصيص بعض الأنبياء بالذكر لإظهار فضلهم، والتّشبيه بجنس الوحي، وإن اختلفت أنواعه، واختلف الموحى به⁽²⁾.

الوحي معيّن لا
ينتهي مددّه، ولا
ينقطع سنّه

سرّ البدء بنوح ﷺ، قبل سائر الأنبياء العظام:

وبدأ بذكر نوح ﷺ لأنّه كان أبا البشر، مثل: آدم ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: 77]، والكلُّ يعرفه بالأخبار المتواترة، وسُمّي آدم الأصغر، ولأنّه أوّل نبيٍّ من أنبياء

(1) الواحديّ، الوسيط: 2/140.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 6/31.

نوح أطول
الأنبياء دعوة
ومعاتبه،
وأكثرهم صبرا
ومغالبة

الأنبياء أبناء
عَلَات، أُنْبُوهُمْ
واحدَ وأُمَهَاتُهُمْ
شَتَّى

كاف التشبيه
فارقة في الدلالة
عن المعنى للمثل
له بها

الرَّسُولُ
مُقَرَّرٌ إِرْسَالُهُ فِي
الْأَزَلِ، وَلَا مَدْعَاةَ
لَمَا يُنَاوِرُ مِنْ جَدَلٍ

الشريعة، وأوّل أولي العزم من الرُّسل، وكان أطول الأنبياء عُمرًا، وجُعِلَتْ معجزته في نفسه؛ لأنّه عُمِّرَ ألف سنة، ولم تنقص له قوّة، كما صبر على أذى قومه، وقاسى الشدائد منهم على طول عمره، وهو أوّل من عذّبته أمّته لردهم دعوته⁽¹⁾، وفي هذا تهديد لمنكري الوحي، أن يحلّ بهم ما حلّ بقوم نوح (ﷺ).

دلالة عدم ذكر الموحى به، في قوله: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾:

لم يذكر الموحى به؛ لإفادة العموم، فيشمل القرآن والسنة، ولأنّه معلومٌ لديهم؛ فهو علم لا يحتاج إلى ذكر لمعرفةهم به، ومعنى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أي "بكلامنا وأوامرنا ونواهينا وهداياتنا.. كما أوحينا إلى نبيّنا نوح وإلى سائر الأنبياء الذين جاءوا من بعده"⁽²⁾، وما أوحى إلى النبيّ (ﷺ) وإلى سائر الأنبياء، معلوم المضمون، لأنّ الدّين عند الله الإسلام، والمنهج في التّوحيد والعبوديّة واحد، وما يختلف هو الشرائع المميّزة لكل رسالة عن أختها.

دلالة اختيار حرف (الكاف) في قوله: ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا﴾ دون لفظ (مثل):

اختار الكاف دون مثل؛ للإشارة إلى عدم الاتّفاق في كلّ أمور الوحي؛ لأنّ مثل تعني: الاتّفاق في الذات والصفة، وهذا يخالف تعدّد صور الوحي والموحى به؛ لذلك كان التشبيه بالكاف؛ لأنّه يلمح بعض وجوه التشبيه، ولا يلزم الاتّفاق في كلّ الجوانب.

دلالة التعبير بالفعل الماضي، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا﴾:

الفعل الماضي يدلّ على تحقّق الوقوع، وفي هذا إشارة إلى أنّ نبوّته (ﷺ)، أمرٌ قديم قدره الله أزلاً، وليس اجتهداً، ولا ادّعاءً، وفي هذا ردٌّ على المعاندين والمعارضين من أهل الكتاب والمشركين.

(1) الشَّريبي، السَّراج للنير: 1/345.

(2) محمّد سيّد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 3/390.

دلالة التعبير بـ (ما) دون الذي في قوله: ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا﴾:

عبر بـ (ما) دون الذي؛ لأنها أعمُّ، فتحتمل أن تكون مصدرية، والمعنى: كوحينا الذي أوحيناه، ولا تحتاج إلى تقدير عائد، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى: (الذي)، ويكون العائد محذوفاً تقديره: كالذي أوحيناه إلى نوح⁽¹⁾، وفي حالتها المقدرتين، تفيد أن الموحى منسوب إلى الله، وعظم القرآن في فحواه، بقدر عظمة من أنزله وآتاه.

لا ريب أن القرآن
حقٌّ يؤثر، وقيم
لا تنكر

دلالة البدء بذكر نوح في التشبيه، دون غيره من الأنبياء:

لأن دعوة نوح (ﷺ) تمثل دعوة عامة لكل البشر آنذاك، ورسول الله ﷺ دعوته عامة لكل البشر، فوجد وجه جامع بينهما في عموم الرسالة، وأيضاً في تحمُّل الأذى من المدعوين، وفيه إشارة لتهديد المعاندين والمعارضين من اليهود والمشركون بإنزال العذاب عليهم، كما أنزله الله على قوم نوح (ﷺ).

نوح رمز لطول
المعاناة،
والدعوة في صبر
وأناة

دلالة عطف ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ بدون ذكر فعل الوحي:

لم يذكر فعل الوحي مرة ثانية مع النبيين - كما سبق ذكره - إما اكتفاء بما سبق، أو للإشارة إلى أن بعض النبيين كان متبوعاً للرسل الذين سبقوه، فليس لهم شريعة مستقلة، بل هم تابعون لهم فيما أنزله الله عليهم.

النبيون يتلو
بعضهم بعضاً،
في الوحي
والبلاغ

دلالة التعبير بلفظ ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ دون لفظ (الرسولين):

عبر بالنبيين؛ لأنهم أعمُّ من الرسل؛ فكلُّ رسول نبِّيٌّ، وليس كلُّ نبِّيٍّ رسولاً، ولأنَّ الأنبياء ليس لهم شرع جديد؛ فهم لا يكلفون بالتبليغ، وإذا فعلوا؛ يكون من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ممَّا يقتضيه الصَّلاح، وتتطلبه الغيرة على حرَمات الله.

النُّبوة تشریف،
والرسالة تكليف

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/447.

دلالة التعبير بلفظ ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ دون لفظ (الأنبياء):

الأنبياء صفوة
من الكرام،
والكرام قلّة في
الأنام

عبر بالنبيين هنا؛ لأنّ المقام يناسبه التعبير بجمع القلّة؛ فلم يذكر كلّ الأنبياء، بدليل قوله بعد ذلك، ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، والرّسل تشمل الأنبياء.

سرّ ذكر بعض الأنبياء بأسمائهم بعد ذكرهم إجمالاً:

دلالة عطف
الخاصّ على
العامّ

وخصّ بعض النّبيّين من بعد نوح بالذكر؛ لشهرتهم، وعلوّ مقامهم عند أهل الكتاب، والمقام مقام تسليّة لقلب النّبيّ ﷺ وتأسّ، كأنه يقول له: لك أسوء بالنبوات السّالفة، فتأسّ بهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]⁽¹⁾، وذكر أسماء بعض الأنبياء من عطف الخاصّ على العامّ.

دلالة تكرار الفعل ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ ثلاث مرّات في الآية:

الوحي يقين
وعرفان، وتجلّي
بعوارف الإيمان

كرّر الفعل ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ لمزيد تقرير الإيحاء، والتّنبية على شرف هؤلاء الرّسل والنّبيّين الذين ذكر أسماءهم، و على أنّهم طائفة خاصّة مستقلة بنوع مخصوص من الوحي، و"حقيقة الوحي الإلهي: عرفان يجده الشّخص من نفسه، مع اليقين بأنّه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة"⁽²⁾.

دلالة تكرار الفعل ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ مع (إبراهيم)، بعد ذكره مع نوح:

نوح آدم الثّاني،
وإبراهيم رمز
لتجديد المعاني

كرّر الفعل ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ مع إبراهيم (ﷺ)، ولم يكتف بذكره سابقاً للإشعار بوجود فترة زمنيّة كبيرة بين نوح وإبراهيم - ﷺ - وفيه إشارة إلى أصالة كلّ منهما في أمر الوحي، فنوح ﷺ يمثل مرحلة فاصلة في حياة البشريّة، فهو أبو البشريّة الثّاني، وأمّا إبراهيم

(1) الطّبي، فتوح الغيب: 5/231.

(2) وهبة الزّحيلي، التّفسير الوسيط: 1/414.

ﷺ فهو أبو الأنبياء جميعاً؛ لذلك استقلَّ كلُّ منهما بفعل الوحي، وعظفت الجملتان على بعضهما، ودخلتا في حكم التشبيه⁽¹⁾.

ضمَّ أبناء إبراهيم وأسابطه إليه، مع أنَّ الصَّحف لم تنزل إلا عليه:

لأنَّهم كلَّفوا بالعمل بما أنزل على إبراهيم ﷺ فهم داخلون تحت شريعته، والمعنى في الآية: أوحينا إليك القرآن، كما أوحينا إلى إبراهيم، و"كما أوحينا إلى ابنه إسماعيل، وابنهِ إسحاق، وكما أوحينا إلى يعقوب بن إسحاق، وكما أوحينا إلى الأسباط وهم أولاد يعقوب"⁽²⁾.

دلالة تقديم (عيسى) على (أيوب)، مع تقدُّمه في الزَّمان عليه:

قدَّم عيسى ﷺ على من بعده تحقيقاً لنبوته، وقطعاً لما ذكره اليهود فيه⁽³⁾ وردًّا على اليهود الذين كفروا به، وكذبوه، وأنَّه روح الله ومعجزة الخلاق القدير، الَّذي أوجده من أمِّ بلا أب، وكان محور الجدل حيًّا وميِّتًا، ونال من الشُّهرة الواسعة، وحاز من الاتِّباع والحواريين، ما لم ينله أيُّوب ولم يحزه كثير من الأنبياء أمثاله، فلم يكن مستغرباً أن يقدِّم عيسى على أيُّوب في السِّياق.

دلالة ذكر جمع من الأنبياء والرُّسل في آية واحدة:

دلَّ هذا الجمع الكريم للرُّسل على إقامة الحجَّة على مَنْ يفرِّقون بين رسل الله، ويقولون: نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، كيف ذلك، وكلُّهم يحملون الهداية والرَّحمة إلى عباد الله تعالى، فكيف تقبلون على بعضهم، وتكفرون ببعضهم؟ وفيه إشارة لإقامة الدليل العقليِّ على نبوِّته ﷺ، من خلال جمع الوحي بينه وبين نوح ﷺ والنَّبِيِّين من بعده، فكما أوحى الله إليهم، واعترفتم، وصدقتم، كذلك أوحى الله إلى رسولنا ﷺ⁽⁴⁾.

بيان ما لإبراهيم
من مآثر ورثها
الكابر عن الكابر

يقدِّم النَّبِيُّ في
الذِّكْر والثناء،
بتميِّزه في
الاصطفاء
والعطاء

جرى الاعتقاد
والعمل بأنَّ
لا تفريق بين
الرُّسل

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/391.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/391.

(3) أبو السَّعود، إرشاد العَقْل السليم: 2/255.

(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/1010.

دلالة التعبير بقوله: ﴿وَأَتَيْنَا﴾ دون قوله: (أوحينا):

يشبه الزبور
القرآن في أنه
أنزل مثله
منجماً

التعبير بـ ﴿وَأَتَيْنَا﴾ دون (أَوْحَيْنَا)؛ لأنها معطوفة على ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ داخلة في حكمها، ولأنَّ إيتاء الزبور من باب الإيحاء، أي: وكما آتينا داود زبوراً آتيناك القرآن، وإيثاره ﴿وَأَتَيْنَا﴾ على (أوحينا) إلى داود؛ لتحقيق المماثلة في أمر خاص، وهو إيتاء الكتاب بعد تحققها في مطلق الإيحاء⁽¹⁾، ولعلَّ اختصاص الزبور بالذكر؛ لأنه لم ينزل على داود جملة واحدة، بل نزل منجماً كالقرآن⁽²⁾، وذهب البعض في تعليل ذلك إلى "أنَّ الزبور لم يكن من كلمات الله الموحى بها، وإنما كانت إلهامات ومشاعر فاض بها قلب داود في مقام الولاء والخشوع لله، فكانت ترانيم جرت على لسانه؛ ليمجّد الله بها، ويرفعها إليه في صلوات خاشعة، أشبه بالمأثور من دعاء النبي ﷺ في مواقف صلواته لله، وتسبيحه له، ولهذا أضيفت إليه، فسميت: مزامير داود"⁽³⁾.

من أسرار ترتيب الأنبياء في الذكر والتنزيل والتكريم:

جمع في النبي
الخاتم، ما
تفرّق في الأنبياء
الأكارم

ذكر تعالى في هذه الآية اثني عشر نبياً بأسمائهم، وأجمل ذكر باقيهم، وذكر بعض أولي العزم وبعضاً من غيرهم، وذكر بعضهم على الترتيب، وذلك أنه أراد أن يبين أنه أوحى إليه، كما أوحى إليهم، وخصّه بما خصَّ كل واحد منهم به تفضيلاً له وتشريفاً، وأنه جرى معهم مثل ما جرى معه، فذلك من الحساب المغني بجملته عن التفصيل؛ فذكر نوحاً الذي هو أول أولي العزم من الرُّسل والأنبياء ومن بعده مجملاً، ثم فصل النبيين: فذكر إبراهيم الذي كان أول النبيين من أولي العزم بعد نوح، وذكر معه من جرى منه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/255.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/530.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/1011.

مجرى أبعاضه في كونهم تابعين له، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، ثم ذكر آخر أولي العزم: وهو عيسى، ثم الأواسط: أيُّوب ويونس وهارون، ثم ذكر من أوتي الكتاب مجملًا: وهو داود، فالزبور اسم كتابه، وأفرد ذكر موسى من حيث إنه خص بالتكلم، وكل هذه الفضائل كانت للنبي ﷺ (1).

المقارنة في ترتيب الأنبياء، بين ما ورد في سورتي النساء والأنعام:

ترتيب الأنبياء هنا اختلف عن ترتيبهم في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٣﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ٨٦﴾ [الأنعام: 83 - 86]، وذلك أن آية النساء هنا نزلت ردًا على قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: 153]، وردًا على قول المشركين: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: 93] فبين هنا أنه لم ينزل على كل الأنبياء كتابًا، بل بعضهم بوحى من غير كتاب، وبعضهم بوحى وكتاب، وبعضهم بوحى بوحى وصُحُف، فقدّم نوحًا لعدم نزول كتاب عليه مع نبوته، وأجمل النبيين من بعده، ثم فصلهم: فقدّم إبراهيم لإنزال صحفه، وتلاه بمن لا كتاب له، ثم قدّم عيسى للإنجيل، ثم تلاه بمن لا كتاب له، وهم: أيُّوب ومن بعده، ثم قدّم داود وزبور، وتلاه بمن لا كتاب له ممن قصّهم أو لم يقصّهم، ثم ذكر موسى لبيان أن تشريفه للأنبياء ليس بالكتاب، ولذلك خصّ بعضهم بما شاء من أنواع الكرامات: إمّا بتكليم أو إسرائ، أو إنزال كتاب، أو صحيفة، فناسب هذا الترتيب

ترتيب الأنبياء
مرتبط بالتنزيل
والإنعام على
الرسل الكرام

(1) الزاغ، تفسير الزاغ: 230 / 4 - 231.

ما تقدّم. أمّا آيات الأنعام؛ فساقها في سياق نِعَمِهِ على إبراهيم، ومَنْ ذكره مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، ففرّق بين كلّ اثنين منهم، بما اتّفق لهما من وصف خاصّ بهما: فداود وسليمان بالملك والنُّبُوّة، وأيّوب ويوسف بنجاتهم من الابتلاء: ذاك بالمرض، وهذا بالسّجن، وموسى وهارون بالأخوّة والنُّبُوّة، وزكريّا ويحيى بالشّهادة، وعيسى وإلياس بالسّيّاحة، وإسماعيل واليسع بصدق الوعد، ويونس ولوط بخروج كلّ منهما من قرية مَن بعث إليه، ونجاة يونس من الحوت، ولوط من هلاك قومه⁽¹⁾.

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 143 - 145.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن

الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 8، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-60-6

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

مج. 8: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-60-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»